صور المشترك اللفظي في القرآن الكريم وأثرها في المعنى

إعداد

د. زيد بن علي بن مهدي مهارش

الأستاذ المشارك بكلية التربية

جامعة جازان

صور المشترك اللفظي في القرآن الكريم
وأثرها في المعنى

ملخص البحث:

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد :

فقد تناول هذا البحث الأساس النظري للمشترك اللفظي في القرآن الكريم وأثرها الدلالي في بيان معاني القرآن الكريم بمنهجية وصفية تحليلية.

وقد عرّف البحث المشترك اللفظي في اللغة والاصطلاح وبين موقف العلماء من هذه الظاهرة القرآنية وأنواع هذا الاشتراك كما بين البحث تداخل هذه الظاهرة مع ما عُرف في اصطلاح الدراسات القرآنية في الوجوه والنظائر، وكذا تداخلها مع معاني الحروف ، والأثر الدلالي لكل ذلك في بيان معاني القرآن الكريم وكذا في الأحكام الفقهية وفي الإعجاز القرآني .

وأفضت هذه الدراسة إلى جملة من النتائج القيمة أهمها: أن المشترك اللفظي موجود في اللغة والقرآن وأنه سبب من أسباب اختلاف العلماء من مفسرين وفقهاء وغيرهم

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

Shapes Of the shared pronunciation in the Holy Quran And their impact on meaning

D. Zaid bin Ali bin Mahdi Moharish
Associate Professor, Faculty of Education
Jazan University, Jazan

Abstract:

Praise be to Allah, peace and blessing be upon His Messenger Muhammad and his family and upon his companions :

This research has dealt with the theoretical basis of a shared pronunciation in the Holy Quran and its impact in the statement of the semantic meanings of the Qur'an with descriptive and analytical methodology.

In this research shared pronunciation was defined in the Arabic language and terminology and clarified scholars opinions to this Quranic phenomenon.

This research clarified shared pronunciation interference with the letters meanings and its impact on the Holy Quran meaning, jurisprudence rules and Quranic miracles.

This study led to a number of valuable results, including: That the shared pronunciation is occur in the Holy Quran and causes different interpreters of scientists and scholars of Islamic jurisprudence

May Allah bless our Prophet Muhammad and his family and his companions.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة :

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه وبركاته عليه وعلى النبيين من قبله وسلم تسليماً كثيراً. أما بعد:

فإن القرآن الكريم كلام الله تعالى المعجز، تحدى الله تعالى به البلغاء والفصحاء أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وأنزله سبحانه هدى للناس، ورحمة وشفاء لما في الصدور، وأمرهم بتدبره وفهمه فقال:﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾[محمد: ٢٤]، وجعله المعجزة الخالدة، والدستور الكامل الشامل لكل ما يصلح الأمة،كما حوى من أسرار البلاغة والفصاحة والإعجاز ما تحار منه العقول، وقد حمل من ألفاظ التشريع وأسرار التكليف، وبيان الدين مالا يكتنفه شك ولا شبهة، فنهل منه العلماء العارفون، وأكبوا في تحصيل علومه، وتجلية معانيه، وبيان مراد الله منه، فيما يصلح أمر الأمة، ولا زالت هذه المعاني بكراً تتجدد في كل عصر، صالحة لكل زمان ومكان.

ولقد اجتهد علماء العربية من السلف في بيان "المشترك اللفظي" كخاصية بارزة من خصائص العربية وعاملاً من عوامل تنميتها. ولا شك أن المعرفة اللغوية العربية هي من أهم الأدوات التي استعان بها علماء التفسير في فهم نصوص القرآن الكريم. لذلك أحببت أن أسهم بهذا البحث"صور المشترك اللفظي في القرآن الكريم وأثرها في المعنى" إذ إن التعبير القرآني كثيراً ما يختار مفردة معينة ولها أكثر من دلالة، مما يعني أنها ستكون حيال مهمة تحديد القصدية من هذه الدلالة.

وقد تناول هذا البحث الأساس النظري للمشترك اللفظي وأثره الدلالي في بيان معاني القرآن الكريم بمنهجية وصفية تحليلية آملاً أن تكون نواة لدراسات

علمية مطولة يفيد منها العلماء والباحثون، وقد جاء البحث في أربعة مباحث على النحو التالي :

المبحث الأول: المشترك اللفظي في اللغة. وفيه مطلبان:

- ■ المطلب الأول: تعريف المشترك اللفظي في اللغة والاصطلاح
- ■ المطلب الثاني: موقف العلماء من المشترك اللفظي.

المبحث الثاني: أنواع المشترك اللفظي : وفيه ثلاثة مطالب:

- ■ المطلب الأول: الاشتراك المطلق.
- ■ المطلب الثاني: الأضداد.
- ■ المطلب الثالث: الاشتراك بين الحقيقة والمجاز.

المبحث الثالث: التوسع في أنواع المشترك اللفظي. وفيه مطلبان.

- ■ المطلب الأول: الوجوه والنظائر.
- ■ المطلب الثاني: معاني الحروف.

المبحث الرابع: أثر المشترك اللفظي في المعنى. وفيه ثلاثة مطالب:

- ■ المطلب الأول: الأثر الدلالي.
- ■ المطلب الثاني: أثره في الأحكام الفقهية.
- ■ المطلب الثالث: أثره في الإعجاز القرآني.

وبعد: فإني أحمد الله تعالى حمدا كثيرا طيبا مباركا على توفيقه وتيسيره،وهو للثناء والحمد أهل، ولولاه لما كان لنا نسب إلى القرآن أصلا، وما أعظمها من نعمة لا نستطيع شكرها، ونسأل الله تعالى بمنه وكرمه، وهو الجواد الكريم،أن يستعملنا في طاعته، وأن يجعل ما كتب في هذا البحث من حق وصواب خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به في فهم كتابه، وأن يعفو عن ما فيه من الزلل وأن يردنا إلى الحق ردا جميلا .

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم .

المبحث الأول

المشترك اللفظي في اللغة

المطلب الأول: تعريف المشترك اللفظي في اللغة والاصطلاح.

المشترك في اللغة: يعني المخالطة والمقارنة ومنه قوله تعالى:﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾[طه:٣٢]، ويُقال: اشتَركنا بمعنى تشارَكنا، وقد اشترك الرجلان وتَشاركا، وشارك أحدهما الآخر، ومنه: فريضة مُشتَرَكة: يستوي فيها المقتسمون، وطريق مُشتَرَك: يستوي فيه الناس، واسم مُشتَرَك: تشترك فيه معانٍ كثيرة⁽¹⁾.

قال ابن فارس:" الشين والراء والكاف أصلان:

أحدهما: يدل على مقارنة وخلاف انفراد.

والآخر: يدل على امتداد واستقامة.

فالأول الشَرْكة: وهو أن يكون الشيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما، ويقال: شاركت فلاناً في الشيء، إذا صرت شريكه، وأشركت فلاناً إذا جعلته شريكاً- لك...."⁽²⁾.

وأما المشترك اللفظي في الاصطلاح: فهو اللفظ الواحد الذي يطلق على معانٍ مختلفة ليس بينها ما يجمعها؛ وهو ما يفهم من قول سيبويه:" اعلم أن من كلامهم اختلاف اللفظين لاختلاف المعنيين .. واتفاق اللفظين والمعنى مختلف نحو قولك: وجدت عليه من الْمَوْجِدِة، ووجدت إذا أردت وجدان الضالة، وأشباه هذا كثيرا ⁽³⁾.

وهو بعبارة بعض الأصوليين:" اللفظ الواحد الذي يطلق على موجودات مختلفة بالحد والحقيقة إطلاقاً متساوياً"⁽⁴⁾.

وعرفه السيوطي بأنه:" اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة"⁽⁵⁾.

وفي ضوء ما تقدم يمكن أن يُعرف المشترك اللفظي في القرآن الكريم بأنه: كل لفظ ورد في القرآن الكريم يدل على معان متعددة، وليس بين تلك المعاني علاقة معنوية أو بلاغية.

ومعنى هذا التعريف : أن كل لفظ ورد في القرآن الكريم يدل على معانٍ متعددة شرط أساسي في حصول الاشتراك ، لأن المشترك اللفظي الحقيقي إنما يكون حين لا نلمح أي صلة بين تلك المعاني ، سواء أكانت هذه الصلة معنوية أو بلاغية ، وإلا تحول هذا الاشتراك إلى المجاز .

المطلب الثاني: موقف العلماء من المشترك اللفظي:

اختلف العلماء في إثبات هذه الظاهرة، فأثبتها قوم وهم جمهور أهل العلم منهم الخليل بن أحمد، وسيبويه، والأصمعي، وأبو عبيدة، وابن فارس، وابن جني، والثعالبي، والمبرد، وابن خالويه، وكراع النمل، وأبو علي الفارسي، وابن تيمية، والآمدي، والسيوطي ونسبه إلى الأكثرين(٦).

وقالوا: بأن المشترك ضرورة لغوية لا غنى عنها لمستعملي اللغة، وإن كان على خلاف الأصل؛ لأن :"الأصل في الألفاظ أن تكون مختلفة بحسب اختلاف المعاني، لكن ذلك لم يكن في الإمكان إذا كانت المعاني بلا نهاية، والألفاظ مع اختلاف تركيبها ذات نهاية، وغير المتناهي لا يحويه المتناهي، فلم يكن بد من وقوع الاشتراك في الألفاظ"(٧).

وخالفهم ابن درستويه فأنكر وجود المشترك اللغوي؛ لأنه:" لو جاز وضع لفظ واحد للدلالة على معنيين مختلفين، لما كان ذلك إبانه، بل تعميه وتغطيه"(٨). ويعود ابن درستويه إلى جواز وقوع المشترك فيقول:" ولكن يجيء الشيء النادر من هذا لعلل"(٩).

إذا تقرر هذا، عُلم يقيناً أن هذا الخلاف لا طائل من ورائه؛ إذ إن الكل متفقون على أنه وجدت في اللغة ألفاظ قد استعملها العرب في الدلالة على معان مختلفة، بغض النظر عن سبب ذلك الاستعمال، وهذا كاف في إثبات المشترك،

ولذا يرى بعض المحدثين أن من التعسف إنكار المشترك في العربية، وهو:" الذي عليه أكثر الرعيل الأول... فقد أثبتوه وتوسعوا فيه مستندين إلى الشواهد العربية التي لا سبيل إلى الشك فيها"(١٠). مما يؤكد أن:" المشترك واقع ملموس، وحقيقة لا خيال، وكثير لا قليل"(١١).

المبحث الثاني

أنـــواع المشتــرك اللفظـــي

المطلب الأول: الاشتراك المطلق

يقصد بالاشتراك المطلق استعمال اللفظ المشترك في جميع معانيه(١٢)، وهذا جائز(١٣)، إذا لم يمتنع الجمع بين مدلولات هذه المعاني؛ إذ إن جميع المعاني المحتملة للقرآن الكريم مراده في مذهب جمهور العلماء كما نسبه الشوكاني(١٤).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله-:" ومن التنازع الموجود عنهم ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين؛ إما لكونه مشتركاً، كلفظ ﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴾[المدثر:٥١]، الذي يراد به الرامي، ويراد به الأسد، ولفظ ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴾[التكوير: ١٧] الذي يراد به إقبال الليل، وإدباره.

وإما لكونه متواطئاً في الأصل، لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشيئين، كالضمائر في قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾[النجم:٨]، وكلفظ:﴿ وَالْفَجْرِ (١) وَلَيَالٍ عَشْرٍ (٢) وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴾ [الفجر:١-٣]، وما أشبه ذلك، فمثل هذا قد يجوز أن يُراد به كل المعاني التي قالها السلف، وقد لا يجوز ذلك، فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين فأريد بها هذا تارة وهذا تارة، وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه؛ إذ قد جوَّز ذلك أكثر الفقهاء: المالكية، والشافعية والحنبلية، وكثير من أهل الكلام..." (١٥).

وقال الشريف المرتضى في أماليه:" الواجب على من يتعاطى تفسير غريب الكلام والشعر أن يذكر كل ما يحتمله الكلام من وجوه المعاني، فيجوز أن يكون أراد المخاطب كلَّ واحد منهما منفرداً، وليس عليه العلم بمراده بعينه؛ فإن مراده مغيب عنه، وأكثر ما يلزمه ما ذكرناه من ذكر وجوه احتمال الكلام"(١٦).

ولكون المشترك اللفظي وسيلة من وسائل التوسع في التعبير عن المعنى عند المفسرين، فإنك تلحظ استعمالاتهم للفظ المشترك في معانيه ظاهراً عندهم ومتكرراً، ما دامت القرينة لم تمنع من إطلاقه وتوجب تقييده بأحد معانيه.

يقول ابن جرير الطبري في سياق تفسيره لحروف المعجم التي في فواتح السور:" فإن قال قائل: فكيف يجوز أن يكون حرف واحد شاملاً الدلالة على معان كثيرة مختلفة؟

قيل: كما جاز أن تكون كلمة واحدة تشتمل على معان كثيرة مختلفة، كقولهم للجماعة من الناس أمة، وللحين من الزمان أمة، وللرجل المتعبد المطيع لله أمة، وللدين والملة أمة، وكقولهم: للجزاء والقصاص دين، وللسلطان والطاعة دين، وللتذلل دين، وللحساب دين، في أشباه لذلك كثيرة يطول الكتاب بإحصائها، مما يكون من الكلام بلفظ واحد، وهو مشتمل على معانٍ كثيرة"(١٧).

ومما يدل على استعمال الطبري –رحمه الله- لهذه الظاهرة في تفسيره ما جاء في سياق تفسيره لقوله تعالى:﴿ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾[التوبة:١٠]، حيث ذكر أن (الإل) تطلق على الله -سبحانه وتعالى- كما تطلق على القرابة، وكذلك تطلق على الحِلْف والعهد بين القوم، ثم يعلق – رحمه الله- بجواز أن يكون ذلك كله مراداً. فيقول:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله – تعالى ذكره- أخبر عن هؤلاء المشركين الذين أمر نبيه والمؤمنين بقتلهم بعد انسلاخ الأشهر الحُرُم، وحصرهم، والقعود لهم على كل مرصد- أنهم لو ظهروا على المؤمنين لم يَرْقبوا فيهم (إلا) والإلُّ: اسم يشتمل على معان ثلاثة: وهي العهد والعقد، والحِلفُ، والقرابةُ، وهو أيضاً بمعنى الله، فإذا كانت الكلمة تشمل هذه المعاني الثلاثة، ولم يكن الله خصَّ من ذلك معنى دون

معنى، فالصواب أن يَعُمَّ ذلك، كما عمَّ بها –جلَّ ثناؤه معانيها الثلاثة، فيقال: لا يرقبون في مؤمن الله، ولا قرابةً ، ولا عهداً، ولا ميثاقاً"(١٨).

كما استعمل الطبري –رحمه الله- اللفظ المشترك في معانيه في تعليقه على قول الله تعالى:﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾[النحل:٧٢]، فالحفدة تطلق على الخدم والأعوان، وتطلق على بني المرأة من غير زوجها، كما تطلق على الأصهار، وتطلق أيضاً على أبناء الأبناء فيقول الطبري معلقاً على ذلك بعد أن ذكر خلاف أهل التأويل في المعنى المراد:" والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله –تعالى ذكره- أخبر عبادة مُعرِّفَهم نعمه عليهم فيما جعل لهم من الأزواج والبنين، فقال تعالى ذكره: ﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾، فأعلمهم أنه جعل لهم من أزواجهم بنين وحفدة ... وإذا كان معنى الحفدة ما ذكرنا، من أنهم المسرعون في خدمة الرجل، المتحففون فيها، وكان الله –تعالى ذكره- أخبرنا أن مما أنعم به علينا أن جعل لنا حفدةً تحفدُ لنا، وكان أولادُنا وأزواجنا الذين يصلحون للخدمة منا ومن غيرنا، وأختاننا الذين هم أزواج بناتنا من أزواجنا، وخدمنا من مماليكنا، إذ كانوا يحفدوننا فيستحقون اسم حفدةٍ، ولم يكن الله- تعالى ذكره- دل بظاهر تنزيله، ولا على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا بحجة عقل، على أنه عنى بذلك نوعاً من الحفدة دون نوع منهم، وكان قد أنعم بكل ذلك علينا، لم يكن لنا أن نوجِّه ذلك إلى خاصٍ من الحفدة دون عامٍّ، إلا ما أجمعت الأمة عليه أنه غير داخل فيهم"(١٩).

وعلى غرار صنيع الطبري هذا سار أكثر المفسرين في استعمال المشترك اللفظي في القرآن الكريم في جميع معانيه وتصويغهم لذلك.

قال أبو إسحاق الزجاج عند تعرضه لبيان معنى قول الله تعالى:﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[الرحمن:٦]. قال أهل اللغة وأكثر أهل التفسير:"النجم كل ما نبت على وجه الأرض مما ليس له ساق. والشجر كل ما له ساق، وقد قيل: إن

النجم أيضاً يراد به النجوم، وهذا جائز أن يكون؛ لأن الله-عز وجل- قد أعلمنا أن النجم يسجد فقال:﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[النحل:٤٩].

ويجوز أن يكون النجم هاهنا يعني: ما نبت على وجه الأرض، وما طلع من نجوم السماء، يقال لكل ما طلع قد نجم"(٢٠).

ومن الواضح هنا أن أبا إسحاق يجيز أن تكون لفظة "النجم" من المشترك اللفظي الذي استعمل في معانيه؛ فهي كلمة صالحة لأن تعم ما قيل في تفسيرها ولكل وجه مخرج في الصحة غير مدفوع.

وقال الطاهر ابن عاشور:"فأحسن ما تفسر به قول الله تعالى:﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.﴾[النور:٣٥]، أن الله موجد كل ما يعبر عنه بالنور، وخاصة أسباب المعرفة الحق والحجة القائمة والمرشد إلى الأعمال الصالحة التي بها حسن العاقبة في العالمين العلوي والسفلي، وهو من استعمال المشترك في معانيه"(٢١).

وقد لحظ الألوسي هذه الظاهرة عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾[البقرة:١٥٧]، حيث ذكر أن الصلاة من الله تأتي بمعنى: الرحمة، وبمعنى: الثناء والتعظيم، وكذلك تأتي بمعنى: الاعتناء بالشأن. ثم قال:" ومعناها الذي يناسب أن يُراد هنا سواء كان حقيقياً أم مجازياً: الثناء والمغفرة؛ لأن إرادة الرحمة يستلزم التكرار.. وحملها على التعظيم والاعتناء بالشأن يأباهما صيغة الجمع، ثم إن جوزنا إرادة المعنيين بتجويز عموم المشترك، أو الجمع بين الحقيقة والمجاز، أو بين المعنيين المجازيين، يمكن إرادة المعنيين المذكورين كليهما، وإلا فالمراد أحدهما"(٢٢).

وبعد هذا العرض السريع نستطيع القول بأن إعمال المشترك اللفظي في جميع معانيه-إذا لم يكن ممتنعاً الجمع بين مدلولات تلك المعاني- ظاهرة منهجية يصادفها القارئ في جلّ كتب التفسير وإن سُمي بغير اسمه كما يطلق عليه بعض المفسرين المحتملات اللغوية.

المطلب الثاني: الأضداد

التضاد: هو أن يطلق اللفظ الواحد على معنيين أحدهما نقيض الآخر(٢٣). وهو نوع من أنواع المشترك اللفظي؛ قال قطرب:"الوجه الثالث: أن يتفق اللفظ ويختلف المعنى، فيكون اللفظ الواحد على معنيين فصاعداً... ومن هذا: اللفظ الواحد الذي يجيء على معنيين فصاعداً، ما يكون متضاداً في الشيء وضده"(٢٤).

وقال السيوطي:"هو نوع من المشترك. قال أهل الأصول: مفهوم اللفظ المشترك إما أن يتباينا بأن لا يمكن اجتماعهما في الصدق على شيء واحد كالحيض والطهر، فإنهما مدلولا القرء أو يتواصلا"(٢٥).

ولورود ظاهرة التضاد في القرآن الكريم اعتنى به علماء اللغة والتفسير؛ قال أبو حاتم السجستاني في مقدمة كتابه الأضداد:" حَملنا على تأليفه أنا وجدنا من الأضداد في كلامهم والمقلوب شيئاً كثيراً، فأوضحنا ما حضر منه إذ كان يجيء في القرآن "الظن" يقينا وشكا، و"الرجاء" خوفاً وطمعاً، وهو مشهور في كلام العرب...

فأردنا أن يكون لا يرى من لا يعرف لغات العرب أن الله عز وجل حين قال:﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[البقرة: ٤٥، ٤٦]، مدَحَ الشاكين في لقاء ربهم، وإنما المعنى:يستيقنون، وكذلك في صفة من أوتي كتابه بيمينه من أهل الجنة: فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾[الحاقة:١٩] يريد إني أيقنت ولو كان شاكاً لم يكن مؤمناً، وأما قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ

لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ [الجاثية:٣٢]، فهؤلاء شكاك كفار..."⁽²⁶⁾.

ولما كانت ظاهرة التضاد قد تثير بعض الإشكالات خاصة فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم اهتم بها القدماء من لغويين ومفسرين؛ لأن لهذه الألفاظ من الأهمية والخطورة ما ليس لغيرها من الألفاظ في فهم المعنى غير أنه من الملاحظ على أكثر الألفاظ المتضادة التي وردت في القرآن الكريم أنها وردت بمعنى واحد في الغالب، لأن القرآن الكريم استعملها في إحدى دلالتيها دون الأخرى.

وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم فُسرت تلك الألفاظ بالوجهين المتضادين معاً، نحو اختلاف المفسرين في المراد بلفظ "القروء⁽²⁷⁾" في قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[البقرة: ٢٢٨] فذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالقروء: الحيض، وذهب آخرون إلى أن المراد بالقروء: الطهر.

ونحو اختلافهم في لفظ"سُجِّرتْ"⁽²⁸⁾.من قوله تعالى:﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾[التكوير: ٦]، حيث ذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بـ "سجرت": مُلِئت وفاضت. وذهب آخرون إلى أن المعنى: يبست وذهب ماؤها، وقيل: غلت واشتدت فكل مفسر يحاول أن يلتمس قرينة يترجح بها أحد الأقوال المقولة في تفسير الآية؛ "لأن المشترك لا يدل على أحد معنييه أو معانيه إلا إذا كان مصحوباً بقرينة تبينه، سواء كانت القرينة لفظية أو حالية"⁽²⁹⁾.

قال الطاهر ابن عاشور: "وهو يقرر أن الدلوك في قوله تعالى:﴿ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾[الإسراء: ٧٨]، ورد بمعنيين:" فورد بمعنى زوال الشمس عن وسط قوس فرضيّ في طريق مسيرها اليومي، وورد بمعنى ميل الشمس عن مقدار ثلاثة أرباع القوس، وهو وقت العصر، وورد بمعنى غروبها.. فالدلوك يجمع ثلاثة أوقات باستعمال المشترك في معانيه، والقرينة واضحة"⁽³⁰⁾.

وواضح في ضوء ما تقدم أن اللفظة القرآنية إذا كانت تحتمل وجوهاً متعددة مما هو من قبيل الاشتراك، فليس جائزاً تعديتُها إلى أحد هذه الوجوه من غير دليل؛ ولذا قال ابن جرير الطبري-رحمه الله-:" والكلمة إذا احتملت وجوهاً لم يكن لأحد صرفُ معناها إلى بعض وجوهها دون بعض إلا بحجة يجب التسليم لها"(٣١) وقال في موضع آخر:" وغير جائز لأحد نقلُ الكلمة التي هي الأغلب في استعمال العرب عن معنى إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها"(٣٢).

وهذا السلوك المنهجي ظاهرة مطردة تصادف المطالع لكتب التفسير. كل مفسر بحسبه فيما يؤديه إليه اجتهاده في فهم تلك الدلائل والقرائن .

المطلب الثالث: الاشتراك بين الحقيقة والمجاز

لاشك أن من مظاهر تعدد المعنى مع اتحاد اللفظ باب (الحقيقة والمجاز) وهو ما يمكن أن يطلق عليه -تجوّزاً- الاشتراك بين الحقيقة والمجاز.

والحقيقة هي: اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب(٣٣).

والمجاز هو: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح يقع به التخاطب على وجه يصح مع قرينة عدم إرادة المعنى الأصلي(٣٤).

ولقد كان المفسرون على وعي بهذا الاشتراك؛ إذ التجوز باللفظ من الحقيقة إلى المجاز جائز ما كانت القرائن اللفظية والمعنوية التي تمنع إرادة المعنى الحقيقي قائمة.

يقول ابن جرير الطبري –رحمه الله- في تفسير قوله تعالى:﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾[النساء: ٣٧] موجهاً معنى البخل في الآية إلى أنه بخل في العلم دون البخل في الأموال؛ إذ البخل كان مذموماً عند العرب، وعند جميع الأمم، ولم يكن هناك من يقره قبل الإسلام تديناً ولا تخلقاً:" وأولى الأقوال بالصواب في ذلك ما قاله الذين قالوا: إن الله وصف هؤلاء القوم الذين وصف صفتهم في هذه

الآية بالبخل، بتعريف من جهل أمر محمد صلى الله عليه وسلم، أنه حق، وأن محمداً نبي مبعوث، وغير ذلك من الحق الذي كان الله –تعالى ذكره- قد بينه فيما أوحى إلى أنبيائه من كتبه، فبخل بتبيينه للناس هؤلاء، وأمروا من كانت حالُه حالَهم في معرفتهم به أن يكتموه من جَهِل ذلك، ولا يبينوه للناس.

وإنما قلنا هذا القول أولى بتأويل الآية؛ لأن الله- جل ثناؤه- وصفهم بأنهم يأمرون الناس بالبخل، ولم يبلغنا عن أمة من الأمم أنها كانت تأمر الناس بالبخل ديانة ولا تخلقاً، بل ترى ذلك قبيحاً، ويُذَمُّ فاعله، ولا يمتدح وإن هي تخلقت بالبخل واستعملته في أنفسها، فالسخاءُ والجود تعده من مكارم الأفعال، وتحث عليه؛ ولذلك قلنا: إن بخلهم الذي وصفهم الله به، إنما كان بخلاً بالعلم الذي كان الله آتاهموه..." (٣٥).

ويقول أبو المظفر السمعاني في بيان وجه وصف قوم موسى- عليه الصلاة والسلام- له بأنه ساحر، وطلبهم منه أن يدعو لهم ربه في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴾[الزخرف: ٤٩]:" فإن قيل: كيف قالوا: يا أيها الساحر، ثم قالوا: إننا لمهتدون بك، ولا يهتدي أحد بالساحر؟ والجواب: أن الساحر عندهم هو العالم. ومعنى قوله:﴿ يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ﴾. أي: أيها العالم"(٣٦). فوجه معنى السحر إلى غير المعنى المذموم الذي أصبح معروفاً عند المسلمين؛ وهذا ما تعارف عليه العرب قبل الإسلام، والله تعالى خاطب العرب بنظير ما يتعارفونه في كلامهم ويستعملونه في خطابهم .

ويقول ابن جرير الطبري في بيان وجه التعبير بالقرض عن العمل الصالح الذي يقوم به المسلم في الدنيا احتساباً للأجر في الآخرة، وذلك في سياق تفسير قوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[البقرة: ٢٤٣]، :"وإنما سماه الله- تعالى ذكره- قرضاً؛ لأن معنى القرض إعطاء الرجل غيره ماله مملكا له، ليقضيه مثله إذا اقتضاه، فلما كان إعطاء من أعطى من أهل الحاجة والفاقة في سبيل الله، إنما يعطيهم ما يعطيهم من ذلك

ابتغاء ما وعده الله عليه من جزيل الثواب عنده يوم القيامة، سماه قرضاً؛ إذ كان معنى القرض في لغة العرب ما وصفنا"(٣٧).

إذا تقرر هذا فإنه يشترط لقبول ظاهرة الاشتراك المجازي وجوب موافقة المعنى المجازي للمعنى الظاهر من السياق ما لم يتعارض مع الروايات النقلية(٣٨). الواردة في موضوع الآية القرآنية المفسرة التي تثبت المعنى الحقيقي للفظة المفسرة .

ولاشك أن الرجوع في الكلام الوارد عن الحقيقة والظاهر المعهود إلى المجاز إنما يكون بعد أربع مقدمات:

أحدها: بيان امتناع إرادة الحقيقة، وصحة ذلك.

الثاني: بيان صلاحية اللفظ لذلك المعنى الذي عينه، وإلا كان مفترياً على اللغة.

الثالث: الجواب عن الدليل الموجب لإرادة الحقيقة.

الرابع: أن تكون القرينة تصلح لنقلها عن حقيقتها إلى مجازها(٣٩).

المبحث الثالث

التوسع في أنواع المشترك اللفظي

المطلب الأول: الوجوه والنظائر

علم الوجوه والنظائر نوع من أنواع التفسير يقوم أساساً على المفردة القرآنية، ومعنى الوجوه والنظائر أن تكون الكلمة الواحدة ذكرت في مواضع من القرآن الكريم على لفظ واحد، وحركة واحدة، وأريد بها في كل موضع معنى يغاير معنى الألفاظ الأخرى، فلفظ كل كلمة ذكرت في مكان نظير لفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر هو النظائر، وتفسير هذه الكلمات بمعان مختلفة هو

الوجوه، فعلم الوجوه والنظائر يعتمد على مفهوم المشترك اللفظي وفي هذا يقول ابن الجوزي –رحمه الله-:" واعلم أن معنى الوجوه والنظائر أن تكون الكلمة واحدة ذكرت في مواضع من القرآن على لفظ واحد، وحركة واحدة، وأريد بكل مكان معنى غير الآخر، فلفظ كل كلمة ذُكرت نظير للفظ الكلمة المذكورة في الموضع الآخر، وتفسير كل كلمة بمعنى غير معنى الآخر هو الوجوه، إذن: النظائر اسم للألفاظ والوجوه اسم للمعاني فهذا الأصل في وضع كتب الوجوه والنظائر"(٤٠).

وقد صرح بدر الدين الزركشي بأن الوجوه إنما هي الألفاظ المشتركة التي تستعمل في عدة معان فقال:"فالوجوه:اللفظ المشترك الذي يستعمل في عدة معان كلفظ "الأمة"، والنظائر : كالألفاظ المتواطئة"(٤١).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله- :"والأسماء المشتركة في اللفظ هي من المتشابه، وبعض المتواطئة أيضاً من المتشابه، ويسميها أهل التفسير: الوجوه والنظائر، وصنفوا كتب الوجوه والنظائر، فالوجوه: في الأسماء المشتركة، والنظائر: في الأسماء المتواطئة"(٤٢).

والمتصفح لتفسير الطبري يجده قد تعرض لهذا النوع، وفسر الألفاظ المشتركة بأكثر من معنى حسب السياقات التي وردت فيها.

يقول –رحمه الله- مثلاً- في تفسير قوله تعالى:﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ.﴾[البقرة: ١١٦] : "وللقنوت في كلام العرب معان: أحدها: الطاعة، والآخر: القيام، والثالث: الكف عن الكلام والإمساك عنه.

وأولى معاني القنوت في قوله :﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ.﴾: الطاعة والإقرار لله بالعبودية، بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة، والدلالة على وحدانية الله، وأن الله –تعالى ذكره- بارئها وصانعها- وإن جحَد ذلك بعضهم بألسنتهم- مُذْعِنةٌ له بالطاعة

بشهادتها له بآثار الصنعة التي فيها بذلك، وأن المسيح أحُدهم، فأنى يكون لله ولداً وهذه صفته..." (٤٣).

فبعد أن قدم الطبري –رحمه الله- المعاني المشتركة للقنوت اختار القول الأوفق بسياق الآية الكريمة؛ إذ إنه من الاستعمال السياقي انطلقت كتب الوجوه والنظائر، وذلك لتعيين الوجوه للألفاظ القرآنية. فمن المعلوم أن تعدد الوجوه للفظ الواحد الذي يعود إلى معنى لغوي واحد لا اعتبار له في تحديد الوجوه لا لأصل اللفظ، ولا لاستعمال العرب، إلا إذا كان هو المعنى المراد في السياق.

ويبدوا من خلال معالجة الطبري لمفهوم الاشتراك اللفظي أن هذه الظاهرة تتداخل في نماذج متعددة من تفسيره مع ما عُرف في اصطلاح الدراسات القرآنية بالوجوه والنظائر، وهذا يعد إسهاماً جاداً وأصيلاً في تأسيس مثل هذه المفاهيم والمصطلحات القرآنية.

المطلب الثاني: معاني الحروف

إن المبدأ العام الذي يجب أن يُراعى في تفسير القرآن الكريم التمسك بالأصل ما أمكن ذلك، ولا يعدل عنه إلى الفرع إلا إذا قامت حجة ثابتة، أو دليل قوي قاطع على وجوب ذلك، وقد ترد بعض حروف المعاني بمعان مختلفة مما يمكن أن ندخله في أقسام المشترك اللفظي تجوُّزاً، فلقد أثبت ابن جني الاشتراك للحروف والأسماء والأفعال على حدٍ سواء، يقول:" من" و"لا"، و"إن" لم يُقتصر بها على معنى واحد؛ لأنها حروف وقعت مشتركة كما وقعت الأسماء مشتركة مما اتفق لفظه واختلف معناه، وكما وقعت الأفعال المشتركة نحو وجدتُ في الحزن، ووجدت في الغضب، ووجدت في الغنى، ووجدت الضالة، ووجدت بمعنى علمت، ونحو ذلك، ومثل هذا الاشتراك جاء في الحروف(٤٤)، وهذا خروج بتلك الحروف عن معانيها الأصلية لقيام الدليل والحجة؛ ولذا يرى ابن جرير الطبري أنه لا يجوز نيابة حروف المعاني بعضها عن البعض الآخر؛ لأن لكل واحد منها" وجهاً هو أولى به من غيره، فلا يصح تحويل ذلك عنه إلى غيره إلا بحجة يجب التسليم لها"(٤٥).

وقد استعمل المصنفون في التفسير معاني تلك الحروف في إبراز معنى الآية وإيضاحه، كحروف الجر والنصب والجزم، وكذلك أدوات الشرط وغيرها من الحروف، وقد أثرت دلالات تلك الحروف في تفسير كلام الله تعالى من جهات مختلفة، خصوصاً إذا ورد الحرف بمعان مختلفة.

يقول الشوكاني في سياق تفسيره لقوله تعالى:﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣]،: والحاصل أن ﴿ من ﴾ في ﴿من السماء ﴾ لابتداء الغاية بلا خلاف، و﴿من﴾ في قوله تعالى:﴿ من جبال﴾ فيها ثلاثة أوجه، وأما من في ﴿ من برد ﴾، ففيها أربعة أوجه(٤٦).

وبين المفسرون ما يترتب على تفسير الآية من تحديد دقيق لمعنى الحرف الوارد في الآية، نحو قول القاضي ابن عطية في معنى حرف الباء في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، فقال:" فقال قوم المعنى: أثابكم غماً بسبب الغم الذي أدخلتموه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر المؤمنين بفشلكم وتنازعكم وعصيانكم و"الباء" على هذا باء السبب، وقال قوم: المعنى أثابكم غماً بالغم الذي أوقع على أيدكم بالكفار يوم بدر... و"الباء" على هذا باء معادلة..." (٤٧).

وقد كان للمفسرين مناهج مختلفة في تحديد معاني الحروف، منهم من يعدد المعاني المحتملة للحرف الوارد في الآية دون ترجيح، أو بيان لاحتمال الحرف لجميع تلك المعاني، ومنهم من يبين احتمال الآية للمعاني التي يذكرها، ويصحح ذلك، ومنهم من يصحح إحدى تلك الاحتمالات للحرف الوارد ويرد غيره من المعاني ويبطلها، ومنهم من يكتفي بذكر إحدى الاحتمالات ويبني عليه المعنى المراد من الآية، وفق ما أوصله إليه اجتهاده، ويظهر هذا جلياً في بيان معنى حرف الجر"إلى" في قوله تعالى:﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ﴾[آل عمران:٥٢، الصف:١٤].

قال البغوي -رحمه الله- في سياق تفسيره لهذه الآية في سورة الصف: " أي: من ينصرني مع الله"(٤٨)، ولكنه في سورة آل عمران ذكر فيها ثلاثة أقوال(٤٩).

وعدَّ فيها الفخر الرازي-رحمه الله- ستة أوجه(٥٠)، بينما نجد القاضي ابن عطية –رحمه الله- في بيانه لمعنى هذا الحرف ذكر أنه يحتمل معنيين ثم قال: " لكن ليس يباح من هذا أن يقال إن "إلى" بمعنى مع"(٥١).

المبحث الرابع

أثـر المشتـرك اللفظـي في المعنى

المطلب الأول: الأثر الدلالي

لاشك أن للمشترك اللفظي أثره الدلالي في تفسير القرآن الكريم، فكما أن التعبير عن المعنى المراد يتسع من طريق الاشتراك، فإنه يثير قضايا دلالية مرتبطة في عمومها بظواهر لغوية تناسب ظروف الاستعمال، وطبيعة العلاقة بين المعنيين الداخلين في مفهوم الاشتراك وقضية الغموض والوضوح، والدور الذي يجب أن يكون للكلمة الواحدة في سياق معين.

والتعبير القرآني كثيراً ما يختار مفردة معينة لها أكثر من دلالة واحدة، كلفظة "قسورة" في قوله تعالى:﴿ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ.﴾[المدثر: ٥١]، فقد فسرت بأنها الرامي، أو الأسد، أو جماعة الرماة، أو أصوات الناس، أو ظلام الليل(٥٢)، وبهذا تتواشج هذه المعاني لترسم أبلغ صورة لهؤلاء الذين كانوا ينفرون من مجرد صوت القرآن كما تنفر الحُمرُ من أي صوت تسمعه أو أي شخص تراه، أو حيوان تشاهده خوفاً أن يفترسها، فالصفة الجامعة بينهما أن كلاً منهما ضعيف منهار أمام جبار قوي، مقدر أنه واقع لا محالة؛ لأن الصائد مما لا تمكن مقاومته؛ لأنه قسورة فالأسلم إذن الهزيمة والفرار(٥٣)، فكيف إذا أضيف إلى كل هذا أنها تعني ظلمة الليل، والصوت المزعج، حيث الخوف أكبر وأكبر. وبهذا لا يزداد التصوير إلا تكثيفاً في الدلالة على مصدر الخوف.

وتمتد دلالة المشترك اللفظي إلى ما هو أوسع من مجرد اللفظ الواحد، بل قد يكون ناتجاً عن حذف الأداة، وتقديرها كيفما قدرت، ولعل من أبرز الأمثلة على ذلك قوله تعالى:﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴾ [النساء: ١٢٧]، إذ يجوز فيه معنى الإقبال، ومعنى الإعراض، على حسب تقدير الحرف" ترغبون في" و" وترغبون عن"؛ إذ نص الطاهر ابن عاشور على أن المعنيين مقصودان "على حد استعمال المشترك في معنييه"(٥٤).

كما لحظ الطاهر ابن عاشور -رحمه الله- عند تفسيره لقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾[غافر:٦٠].

أن لفظ "ادعوني" يمكن أن يستوعب معنيين: الدعاء، وعبادة البدن فقال: " فالدعاء يطلق على سؤال العبد من الله حاجته، وهو ظاهر معناه في اللغة، ويطلق على عبادة الله على طريق الكناية؛ لأن العبادة لا تخلو من دُعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرع إليه، وهذا إطلاق أقل شيوعاً من الأول...

فلما جمعت الآية بين الفعلين على تفاوت بين شيوع الإطلاق في كليهما علمنا أن في المعنى المراد ما يشبه الاحتباك بأن صُرح بالمعنى المشهور في كلا الفعلين، ثم أعقب بقوله:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ.﴾، فعلمنا أن المراد الدعاء والعبادة، وأن الاستجابة أُريد بها قبول الدعاء وحصول أثر العبادة، ففعل "ادعوني" مستعمل في معنييه بطريقة عموم المشترك"(٥٥).

كما أن الحروف المشتركة تستجمع معاني كثيرة يحددها السياق القرآني ولها أثرها الدلالي الواضح، كما تقدم في قوله تعالى:﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾[آل عمران: ٥٢]، فقد زاد اختيار الحرف (إلى)

في الآية معنى جديداً زائداً على معناه الأصلي، وهي نسبة النصرة وغايتها تكون من الجميع، تقوية لها، وإعلاءً لكلمة الله تعالى، وهذا لا يؤديه معنى (مع) وحده؛ ومن هنا يظهر الدور الدلالي للمشترك اللفظي في تفسير القرآن الكريم وآثره في توسعة المعنى القرآني.

المطلب الثاني: أثره في الأحكام الفقهية

لقد قدمنا القول بأن للسياق أثراً في الكشف عن المقصود من المشترك اللفظي في السياق المعين، لكن يبقى الاشتراك سبباً رئيساً في الاختلاف، فالسياق لم يستطع أن يحسم الخلاف بين الأصوليين في لفظ" القرء" أهو الطهر أم الحيض؟ إذ إن " أصل القرء في كلام العرب الوقت لمجيء الشيء المعتاد مجيئه لوقت معلوم، والإدبار للشيء المعتاد إدباره لوقت معلوم"(٥٦)، فلفظ "القرء" من الألفاظ المتضادة، وهو نوع من المشترك اللفظي، فيطلق على الطهر، ويطلق على الحيض، وهذا أدى إلى اختلاف العلماء في تحديد المراد بذلك ولكل أدلته التي يستدل بها، وكل هذه الأدلة قوية بحيث يصعب على المتأمل فيها التماس ما يرجح أحدهما على الآخر، فيكون المعول عليه في الترجيح هو ما يراه المجتهد، ويطمئن إليه؛ ولذا يقول الفخر الرازي: " واعلم أنه عند تعارض هذه الوجوه تضعف الترجيحات، ويكون حكم الله في حق الكل ما أدى اجتهاده إليه"(٥٧).

ومن أمثلة ذلك –أيضاً– اختلاف الفقهاء في وجوب توصيل الصعيد إلى أعضاء التيمم، نتيجة لاختلافهم في معنى (منه) الوارد في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[المائدة:٦]؛ وذلك لتردد حرف"منه" في الآية بين التبعيض، وبيان الجنس(٥٨).

فمن حمل هذا الحرف على التبعيض أوجب نقل التراب إلى أعضاء التيمم، ومن حمله على بيان الجنس لم ير نقل التراب واجباً.

وفي ضوء ما تقدم نخلص إلى أن الاشتراك سبب في اختلاف العلماء، لأن المشترك لا يدل على أحد معنييه إلا إذا كان مصحوباً بقرينة تبينه، سواء كانت القرينة لفظية أو حالية.

المطلب الثالث: أثره في الإعجاز القرآني

إن من أكبر الأوجه التي أثبتها الحافظ السيوطي الدالة على إعجاز القرآن ألفاظه المشتركة حيث قال –رحمه الله-:" الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً وأكثر وأقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر"(٥٩).

وهذا في نظر السيوطي يعضد قاعدة التوسع والتنوع، وتعدد المدلولات للقرآن الكريم مما يجعل هذا الوجه من أعظم إعجازه(٦٠). وهو ما ذهب إليه الأستاذ الطاهر ابن عاشور حيث قال:" ومن أساليب القرآن المنفرد بها التي أغفل المفسرون اعتبارها أنه يَرِد فيه استعمال اللفظ المشترك في معنيين أو معان إذا صلح المقام -بحسب اللغة العربية- لإرادة ما يصلح منها، واستعمال اللفظ في معناه الحقيقي والمجازي، إذا صلح المقام لإرادتهما، وبذلك تكثر معاني الكلام مع الإيجاز، وهذا من آثار كونه معجزة خارقة كعادة كلام البشر، ودالة على أنه منزل من لدن العليم بكل شيء والقدير عليه"(٦١).

ولعل قوله تعالى:﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾[الفتح:١]، يصلح مثالاً على ذلك فالفتح له إطلاقان، إما على صلح الحديبية، أو على فتح خيبر، والإطلاقان بينهما علاقة باعتبار أن صلح الحديبية آل إلى فتح مكة بمعنى أنه كان سبباً فيها، ومن ثم فالفعل (فتحنا) يكون له إطلاقان:

الأول: اعتباره الحقيقي في دلالته على الماضي إن كان المقصود بالفتح صلح الحديبية.

الثاني: الاعتبار المجازي في دلالته على المستقبل إن كان المقصود فتح خيبر، "فيكون اسم الفتح استعمل استعمال المشترك في معنييه، وصيغة الماضي استعملت في معنييها، فيظهر وجه الإعجاز في إيثار هذا التركيب"(٦٢). وهذا مندرج تحت الإعجاز بالفصاحة والبلاغة وعده وجهاً مستقلاً بالإعجاز فيه نوع تجوُّز وتساهل؛ لأن المشترك ذاته وقع في كلام العرب وإن قل.

نتائج الدراسة

لعل هذه الدراسة الموجزة قد أفضت إلى نتائج يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- أن المشترك اللفظي موجود في اللغة والقرآن.

٢- أن الألفاظ المتضادة نوع من المشترك اللفظي.

٣- أن التجوز باللفظة القرآنية من الحقيقة إلى المجاز جائز ما كانت القرائن اللفظية والمعنوية التي تمنع إرادة المعنى الحقيقي قائمة.

٤- أن ظاهرة الاشتراك اللفظي تتداخل مع ما عُرف في اصطلاح الدراسات القرآنية بالوجوه والنظائر.

٥- أن اختلاف معاني الحرف الواحد يعد نوعاً من أنواع المشترك اللفظي على وجه التوسع.

٦- أن اللفظة المشتركة حقيقة أو مجازاً المستقلة بمفهومها الذاتي لها في السياق معنى دلالي يعبر عنه النظم والسياق.

٧- أن المشترك اللفظي سبب من أسباب اختلاف العلماء من مفسرين وفقهاء وغيرهم.

٨- أن المشترك اللفظي يندرج تحت الإعجاز بالفصاحة والبلاغة، واعتباره وجهاً من وجوه إعجاز القرآن الكريم قائماً بذاته يحتاج إلى تحقيق وتدليل.

وختاماً فإني أسأل الله تعالى أن يسدد الخلل، وأن يتم النعمة، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكون ذخيرة لي ولمن قرأه وصوّبه يوم الدين .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

الهوامش

١- انظر: كتاب العين، للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، دار الرشيد للنشر، العراق: (٢٩٣/٥)، والصحاح، لأبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري، بحواشي عبد الله بن عبد الجبار المقدسي، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت: (١٣٠٧/٤)،ولسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين ابن منظور الأفريقي، الطبعة الثالثة، (١٤١٤هـ)، دار صادر، بيروت: (٤٤٨/١٠).

٢- معجم مقاييس اللغة، لأبي الحسين أحمد بن فارس، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، الطبعة الأولى (١٤٢٠هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت: (٦٤٩/١).

٣- الكتاب لسيبويه، تحقيق: عبد السلام هارون، الطبعة الأولى، دار الجيل الجديد، بيروت: (٢٤/١).

٤- معيار العلم، لأبي حامد الغزالي، تحقيق: سليمان دنيا، (١٩٦٩م)، مصر: (٨١).

٥- المزهر في علوم اللغة، لأبي بكر السيوطي، تحقيق: محمد جاد المولى وآخرون، الطبعة الأولى (١٤١٢هـ)، المكتبة العصرية، بيروت: (٣٦٩/١)

٦- انظر: الكتاب: (٢٤/١)، والعين: (٢٩٣/٥)، ومعجم مقاييس اللغة : (٦٤٩/١)، والخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق: محمد علي النجار، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت: (١١٢/٣)، و الإحكام في أصول الأحكام، لعلي بن محمد الآمدي، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، الطبعة الثانية (١٤٠٢هـ)، المكتب الإسلامي، بيروت: (٢٠/١)، و مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر، مكتبة ابن تيمية، مصر: (٢٣٤/٢٠)، والمزهر: (٣٦٩/١)، و فصول في فقه العربية، لرمضان عبد التواب، الطبعة الخامسة، (١٤١٨هـ)، مكتبة الخانجي، القاهرة : (٣٢٤).

٧- مقدمة التفسير ، للراغب الأصفهاني، الطبعة الأولى (١٣٢٩هـ)، المطبعة الجمالية، مصر: (٣٩٥).

٨- المزهر: (١/٣٨٥).

٩- المزهر: (١/٣٨٥).

١٠- الدراسات اللغوية عند العرب إلى نهاية القرن الثالث الهجري، لمحمد حسين آل ياسين، الطبعة الأولى، (١٩٨٠)، مكتبة الحياة، بيروت: (٤١٧).

١١- المشترك اللغوي، نظرية وتطبيقاً، التوفيق محمد شاهين، الطبعة الأولى، (١٤٠٠هـ)، مكتبة وهبة، القاهرة: (١٠٥).

١٢- انظر: أصول الفقه للشيخ محمد الخضري، الطبعة الثانية، مكتبة الرياض الحديثة: (٤٦/١).

١٣- انظر: التفسير الكبير، (مفاتيح الغيب)، لفخر الدين الرازي، الطبعة الثالثة (١٤٠٥هـ)، دار الفكر، بيروت: (٢٥/٢١٦)، و اللباب في علوم الكتاب، لابن عادل الحنبلي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وآخرون، الطبعة الأولى، (١٤١٩هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت: (١٥/٥٦١).

١٤- انظر: إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: محمد سعيد البدري، الطبعة الأولى، (١٤١٢هـ)، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت: (٤٨).

١٥- مجموع الفتاوى: (١٣/٣٤١).

١٦- أمالي المرتضى، لعلي بن الحسين المرتضى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت: (١/٤٦).

١٧- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ)، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية، القاهرة: (١/٢٢٤).

١٨- جامع البيان: (١١/٣٥٨).

١٩- جامع البيان: (١٤/٣٠٣).

٢٠- معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق الزجاج، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ)، دار عالم الكتب، بيروت: (٥/٩٦).

٢١- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، نشر: دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس: (١٨/٢٣٣).

٢٢- روح المعاني: (١/٤٢١).

٢٣- انظر: الأضداد، لابن الأنباري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، (١٩٦٠م)، نشر: دائرة المطبوعات، الكويت: (١-٥)، الأضداد لأبي حاتم السجستاني، تحقيق: محمد عودة أبو جري، الطبعة الأولى، (١٤١٤هـ)، مكتبة الثقافة الدينية، بيروت: (٧٩)، والمزهر: (١/٣٨٧).

٢٤- الأضداد، لقطرب، تحقيق: حنا حداد، الطبعة الأولى، (١٤٠٥هـ)، دار العلوم، الرياض : (٧٠).

٢٥- المزهر: (١/٣٨٧).

٢٦- الأضداد : (٧٢).

٢٧- انظر: جامع البيان: (٤/٨٧)،و تفسير القرآن العظيم مسنداً عن الرسول والصحابة والتابعين، لعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، تحقيق: أسعد محمد الطيب، الطبعة الثانية (١٤١٩هـ)، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة: (٢/٤١٥)، و تفسير القرآن، لأبي المظفر السمعاني، تحقيق: ياسر إبراهيم ، وغنيم عباس غنيم، الطبعة الأولى (١٤١٦هـ)، دار الوطن، الرياض: (١/٢٢٩)، و المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت : (١/٣٠٤).

٢٨- انظر: تفسير القرآن العظيم، لعبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: مصطفى مسلم محمد، الطبعة الأولى (١٤١٠هـ)، مكتبة الرشد، الرياض: (٢/٣٥٠)، وجامع البيان: (٢٤/١٣٩)، و رموز الكنوز في تفسير الكتاب العزيز، لعبد الرزاق الرسعني، تحقيق: عبدالملك بن دهيش، الطبعة الأولى، (١٤٢٩هـ)، مكتبة الأسدي، مكة المكرمة: (٨/٥٠٤).

٢٩- دراسة المعنى عند الأصوليين، لطاهر سليمان حمودة، الدار الجامعية للطباعة والنشر، (١٩٨٣م)، الإسكندرية: (٩٣).

٣٠- التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، نشر: دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس: (١٨٢/١٥).

٣١- جامع البيان: (٣٢٩/١).

٣٢- جامع البيان : (٣٢٩/١)

٣٣- انظر: المعتمد في أصول الفقه، لمحمد بن علي الصبري، تحقيق: محمد حميد الله وآخرون، الطبعة الأولى (١٩٦٤م)، دمشق: (١٦/١)، والإحكام في أصول الأحكام للآمدي: (٢٨/١).

٣٤- انظر: شرح السعد، المسمى :" مختصر المعاني"، الطبعة الأولى، مكتبة محمد علي صبيح، وأولاده، مصر: (١٦٩)،وأسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد رشيد رضا، دار المطبوعات العربية: (٣٠٤)،والتلخيص: (١٢٤).

٣٥- جامع البيان: (٢٥/٧).

٣٦- تفسير القرآن:(١٠٧/٥)، وانظر: تفسير البغوي:(٢١٧/٧)،وتفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء ابن كثير الدمشقي، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، الطبعة الأولى، (١٤٢٢هـ)، دار طيبة، الرياض: (٢٣٠/٧)، و تفسير القرآن العظيم لعلي بن محمد السخاوي ، تحقيق: موسى مسعود، وأشرف القصاص، الطبعة الأولى (١٤٣٠هـ)، دار النشر للجامعات، القاهرة: (١٨٠/٢).

٣٧- جامع البيان : (٤٢٨/٤)

٣٨- المراد بذلك: الروايات الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو عن الصحابة رضي الله عنه، أو عن كبار التابعين مما لا مجال فيه للرأي ولا للقياس.

٣٩- انظر: بدائع الفوائد، لابن قيم الجوزية، تحقيق: معروف مصطفى رزيق وآخرون، الطبعة الأولى (١٤١٤هـ) دار الخير، بيروت: (١٧٣/٤)،و الموافقات في أصول الشريعة، لأبي إسحاق الشاطبي، تعليق: عبد الله دراز، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت: (٩٩/٣).

٤٠- نزهة الأعين النواظر، لأبي الفرج ابن الجوزي، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم، الطبعة الثالثة، (١٤٠٧هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت: (٨٣).

٤١- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، (١٣٩١هـ)، دار المعرفة، بيروت: (١/١٠٢).

٤٢- مجموع الفتاوى: (١٣/١٤٨).

٤٣- جامع البيان: (٢/٤٦٣).

٤٤- انظر: الخصائص: (٢/٩٣).

٤٥- جامع البيان: (١٢/١٧٨)

٤٦- انظر: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، عناية: يوسف الغوش، الطبعة الثانية، (١٤١٦هـ)، دار المعرفة، بيروت: (٤/٥٣).

٤٧- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت: (١/٥٢٦).

٤٨- معالم التنزيل، لأبي محمد البغوي، تحقيق: عبد الله محمد النمر، وآخرون، الطبعة الرابعة، (١٤٠٧هـ) دار طيبة، الرياض: (٨/١١٠).

٤٩- انظر : معالم التنزيل: (١/٤٢).

٥٠- انظر: مفاتيح الغيب: (٨/٦٨).

٥١- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى، (١٤١٣هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت: (١/٤٤٢).

٥٢- انظر: جامع البيان: (٢٣/٤٥٥)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير: (٨/٢٧٣)،و الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى، (١٤٢٤هـ)، مركز هجر للبحوث والدراسات العربية والإسلامية، القاهرة: (٦/٢٨٦).

٥٣- انظر: التشبيهات القرآنية : (١٨٧).

٥٤- التحرير والتنوير: (٢١٥/٥).

٥٥- التحرير والتنوير : (١٨٢/٢٤).

٥٦- جامع البيان: (١٠١/٤).

٥٧- مفاتيح الغيب: (٩٦/٨).

٥٨- انظر: جامع البيان: (٨٠/٧).

٥٩- معترك الأقران في إعجاز القرآن، لأبي بكر السيوطي، تحقيق: أحمد شمس الدين، الطبعة الأولى، (١٤٠٨هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت: (٥١٤/١).

٦٠- المرجع السابق (٥١٤/١).

٦١- التحرير والتنوير : (١٢٣/١).

٦٢- التحرير والتنوير (١٤٥/٢٦).